ستراتفورد كاننك وبواكير نشاطه الدبلوماسي حتى عام 1812

الباحث الأول:
م.م. الاء عيسى عبود
جامعة البصرة/ كلية التربية للبنات

الباحث الثاني:
أ.م.د. عمار محمد كاظم
جامعة البصرة/ كلية التربية للبنات

الملخص:

يعد ستراتفورد كاننك أحد أبرز الدبلوماسيين البريطانيين المرموقين في القرن التاسع عشر، ولد عام 1786 ونشأ في عائلة حرصت على أهمية التعليم، وكان لأسرته أثر كبير في تكوينه الفكري وبناء شخصيته التي كانت حافلة بالعديد من المنجزات الهامة في تعزيز العلاقات البريطانية–العثمانية.

استهل مسيرته المهنية في وزارة الخارجية البريطانية ككاتب، ثم شغل منصب سكرتير الأول في البعثة البريطانية إلى الدولة العثمانية بين عامي 1808 و1810. خلال هذه الفترة، أعد تقارير دقيقة ومفصلة عن الأوضاع السياسية في المنطقة، عكست إدراكا عميقا للتحديات التي تواجهها الدولة العثمانية وموقعها في العلاقات الدولية. اعتمد كاننك على مهاراته التفاوضية لبناء علاقات وثيقة مع المسؤولين العثمانيين، مما أسهم بشكل مباشر في تعزيز المصالح البريطانية خلال تلك المرحلة الحرجة. ركزت جهوده بشكل أساسي على فهم الثقافات المحلية ودورها في صياغة السياسة الخارجية، الأمر الذي جعله شخصية محورية لفهم الديناميات الدبلوماسية في القرن التاسع عشر.

الكلمات المفتاحية: ستراتفورد كاننك، الدبلوماسية البريطانية، الدولة العثمانية، العلاقات البريطانية العثمانية، القرن التاسع عشر.

Al Malweah
for Archaeological
and Historical Studies

Vol 12, Issue 41, Aug 2025
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

Stratford Canning and His Early Diplomatic Activities Until 1812

Alaa Issa Aboud
University of Basrah - College of Education for Women
Dr. Ammar Mohammed Kazem Faraj
University of Basrah - College of Education for Women

Abstract:

Stratford Canning is considered one of the most prominent and distinguished British diplomats of the 19th century. Born in 1786, he was raised in a family that emphasized the importance of education. His family had a significant influence on shaping his intellectual development and building his character, which was marked by many important achievements in strengthening British-Ottoman relations.

He began his career in the British Foreign Office as a clerk and later served as the First Secretary of the British mission to the Ottoman Empire between 1808 and 1810. During this period, he prepared detailed and accurate reports on the political conditions in the region, reflecting a profound understanding of the challenges facing the Ottoman Empire and its position in international relations. Canning relied on his negotiation skills to build close relationships with Ottoman officials, directly contributing to advancing British interests during this critical phase. His efforts focused primarily on understanding local cultures and their influence on foreign policy, which made him a key figure for understanding the diplomatic dynamics of the 19th century.

Keywords: Stratford Canning, British diplomacy, Ottoman Empire, British-Ottoman relations, 19th century.

المقدمة:

تعد دراسة الشخصيات التاريخية حلقة أساسية في سلسلة الجهود المبذولة لكتابة التاريخ، لاسيما تلك التي تركت بصمات واضحة في سياسة بلادها الإقليمية والدولية والتي يمكن الخوض في تفاصيلها والدخول بطريقة علمية ومنهج في حياتهم الشخصية والعملية من خلال الأحداث والظاهر التي تعكس مزاياهم و خصائصهم كشخصيات متميزة ومثيرة للجدل بمواقفها وآرائها السياسية والدبلوماسية انتمائها الشخصي تستحق أن تكون موضوع دراسة وتحليل لما لهم من أدوار مهمة سواء كانت تلك الأدوار إيجابية أم سلبية، فضلا عن أهمية الأفكار والمبادئ التي طرحوها في تلك الفترة.

ولا نستطيع دراسة بريطانيا في القرن التاسع عشر دون الإشارة إلى ستراتفورد كاننك، تميز بدوره الباز على صعيد السياسة الخارجية البريطانية. ومن هنا جاء اختياري "**ستراتفورد كاننك ودوره الدبلوماسي في الدولة العثمانية حتى عام 1858**" موضوعا لأطروحة الدكتورة، لم له من أهمية للكشف عن قضية مهمة في تاريخ الدبلوماسية البريطانية خلال القرن التاسع عشر، وتوضيح الدور الدبلوماسي الذي لعبه ستراتفورد في الدولة العثمانية وأساليب به في مواجهة التحديات الدولية واستخدامه للإعلام كأداة دبلوماسية، وإلقاء نظرة عميقة على كيفية تفاعل بريطانيا مع الدولة العثمانية في ظل تحولات جوهرية سياسية واقتصادية، وبيان المنجزات التي حققها ستراتفورد لبريطانيا، لم ومعالجتها موضوعا لدراسة أكاديمية، لأن الكشف عن نشاط ستراتفورد الدبلوماسي لم يلق الاهتمام المطلوب من الباحثين العرب، وحتى الكتابات الغربية تناولت أغلبها حياته مسيرته بشكل عام وبسط دون التركيز على نشاطه الدبلوماسي.

وفي هذا الإطار تكمن أهمية دراسة شخصية ستراتفورد كاننك ودوره الكبير ومؤثر في الأحداث السياسية البريطانية وفي مرحلة مليئة بالأحداث والتحديات الدولية التي مرت بها الدولة العثمانية.

وقسم البحث الى مقدمة ثلاثة محاور وخاتمة، جاء المحور الأول الموسوم بـــ: **تكوينــه الاجتمــاعي** بدءا من ولادته ونشأته، مرورا بتعليمه وثقافته، وانتهاء بحياته الزوجية، اما المحور الثاني الموسوم بـ: **بواكير نشاطه الدبلوماسي (1807–1810)** مستعرضا تعيينه سكرتيرا أول في وزارة الخارجية البريطانية، ودوره في بعثة روبرت أدير إلى الدولة العثمانية 1808–1810، وتطرق المحور الثالث الموسوم بـــ: **توليه منصب السفير في إسطنبول بين عامي (1810 –1812)**، مسلطا الضوء على منهجه السياسي، ودوره في تأمين عبور السفن البريطانية عبر المضائق العثمانية، ومساهمته في إبرام معاهدة بوخارست عام 1812.

اما الخاتمة فجاءت حصيلة استنتاجية لما حواه البحث من احداث مهمة.

اولا: ستراتفورد كاننك وتكوينه الاجتماعي

1– ولادته ونشأته

ولد ستراتفورد كاننك دي ردكليف Stratford Canning De Redcliff في الرابع من تشرين الثاني عام 1786، في منزل العائلة في سانت كليمنت لين St. Clement Lane في مدينة لندن London، وكاننك هو اسم العائلة التي انتمى اليها، وهي من العائلات البرجوازية العريقة في بريطانيا(Byrne, 1964, pp. 1-2) ، وقدمت عددا من السياسيين الذين ساهموا في صنع احداث تاريخ بريطانيا، أبرزهم جورج كاننك George Canning (1770–

(1827) (Endorf, 2008, p. 1). والده السيد ستراتفورد كاننك Stratford Canning (1744-1787)، الذي كان رجلا مثقفا وذو مكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع البريطاني، تزوج عام 1774 من مهيتابل باتريك Mehiatable Patrick، فقد كانت تنتمي الى عائلة متوسطة الدخل، اذ كان والدها روبرت باتريك Robert Patrick تاجر اقمشة بسيط، اذ تميزت بشخصيتها الفريدة وذكائها وقدرتها العملية، وكان لتلك الصفات تأثيرها الكبير في شخصيته، والذي يبدو من سياق مذكراته انه كان معجبا بأسلوب معاملتها له بدليل انه كتب عنها قائلا: "**كانت مليئة بالإحساس، ومتعلقة بنا بكل صدق، وتعلمنا منها عادات اقتصادية في النظام والنفقات، واستمرت بهذا التعلق حتى وفاتها عام 1832**"(Pool, 1888, p. 7). لذا يمكن القول بأن ستراتفورد كان سعيدا في حياته، لما كان يلاقيه من الاهتمام والعناية من والدته.

رزق ستراتفورد كاننك وزوجته مهيتابل خمسة من الأبناء على التوالي، هنري، ويليام، تشارلز، اليزابيث، وستراتفورد، الا ان العائلة فجعت بموت الاب في عام 1787، تحملت بعدها والدته مهيتابل مسؤولية العائلة منذ ذلك الحين، وقد أحاطت ابنها ستراتفورد بمزيد من الرعاية إضافة الى اخوته خشية تأثره نفسيا بوفاة والده، فأخذت بيده ورفعت من معنوياته ولا سيما بين اخوته (Smith, 1833, p. 21). ولم تكن عائلة ستراتفورد من الأثرياء، الا ان والده كان مؤمنا بالعمل الجاد ليس من اجل كسب المال فقط، بل حسب اعتقاده ان ذلك يساهم ببناء وتقوية شخصية الانسان، فلم يكن قادرا على جمع المال، بل مات مفلسا، الامر الذي اجبر عائلته للانتقال من بيتها في لندن الى بيت صغير في قرية وانستيد Wanstead في ريدبريدج Redbridge في شرق لندن، غير انه لم يحب المكان الجديد لأنه ضيق ولم يكن فيه مكان ترفيهي (Byrne, 1964, p. 2). تزامنت تلك الاحداث مع مجموعة متغيرات داخل عائلته، اذ تكفل ابن عمه جورج كاننك بتربيته وحظي بمحبته، فعمل هو ومهيتابل على تعليمه السلوك المهذب، وانخرط في التعليم الأكاديمي، اذ كان يطمح ان يوفر الفرصة له ليتمكن من تأمين مستقبله وتحسين حياته، ولقد أشار ستراتفورد اليه في مذكراته بالقول: "**انه الشخصية الأكثر بروزا واثارة في دراستي واختيار حياتي المهنية**" (Warr, 1989, p. 5). هكذا أشاد ستراتفورد وبفضل جورج الذي كان له الدور الكبير في رسم توجهاته الفكرية، ومناهج العمل في حياته.

2- تعليمه وثقافته:

بدأ ستراتفورد مسيرته الدراسية وتعلمه في مدرسة ريتشارد نيوكوم Newcome Richard الابتدائية للبنين عام 1792 في مدينة هانكي Hanky، التي كانت تقع على مسافة بعيدة من منزله بالقرب من غابة ايبينك فورست Epping Forest، وضمت المدرسة صفوفا كبيرة، وكل صف

يضم نحو أربعين طالبا يعاني اغلبهم من الفقر. وكان لجورج كاننك دور في تشجيعه على مواصلة الدراسة، وعلى الرغم من جميع الصعوبات التي واجهت والدته، لا سيما العوز المادي، ومع ذلك تمكن ستراتفورد من ان ينجح ويكون ماهرا في القراءة والكتابة والحساب مع اكتساب معلومات جديدة عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية (Smith, 1833, p. 23).

انتقل بعدها في عام 1795 الى المدرسة الداخلية ايتون Eton، وكانت تختلف عن المدرسة الابتدائية، اذ ان الطلبة فيها يرتدون الزي الرسمي الموحد، وتعد هذه المرحلة خطوة مهمة في مسيرته العلمية، فتعرف فيها على ثقافة مختلفة وطلبة جدد. وقد اظهر تفوقا كبيرا في دراسته، اذ حصل على درجات عالية في اغلب المواد الدراسية (Byrne, 1964, p. 3). وخلال دراسته في إيتون ترأس تحرير مجلة منيجور (Miniature) الطلابية في عام 1804، وكانت مواضيع النشر في هذه الصحيفة اخبار محلية وافتتاحيات وبعض المقالات البسيطة، وهذا يدل انه وبالرغم من انشغاله بالدراسة الا انه لم يعزل نفسه فأنضم الى رابطة طلبة إيتون، مما جعله يكون علاقات اجتماعية مع طلبة من نفس أفكاره (Warr, 1989, p. 6).

استمر ستراتفورد متفوقا في المدرسة الداخلية حتى تخرج منها عام 1806، وهو انجاز كبير حققه، لأنه حصل على درجات جيدة مكنته من الدخول الى كلية الملك في جامعة كامبريدج University of Cambridge في الحادي والثلاثين من تموز 1806 لدراسة الرياضيات، بيد انه لم يكمل الفصل الأول من الدراسة في الجامعة، بسبب الظروف المادية الصعبة التي تمر بها عائلته، فقرر البحث عن عمل لأعانه والدته في تحمل أعباء تكاليف المعيشية، وابلغه جورج كاننك الذي كان يشغل منصب وزير الخارجية البريطاني في عام 1807، بأنه هناك فرصة عمل بدوام جزئي في وزارة الخارجية بصفة ملحق دبلوماسي، والذي وافق بالفور، وقد تأقلم مع تلك الوظيفة واظهر اهتماما كبيرا بها اعتقادا منه ان ذلك سيمكنه من اكتساب اكبر قدر ممكن من المنافع والنتائج المهمة لبناء شخصيته (Hunt, 2001, p. 135). يبدو ان حبه لعمله ورغبته في اكمال دراسته الاكاديمية في نفس الوقت جعل والدته تنتبه الى ذلك، فتحدثت معه وابلغته بضرورة ان يكمل دراسته، لذا قدم طلبا الى مجلس الجامعة للعودة في عام 1808 بين فيه أسباب انقطاعه، وبعد مرور أيام على الطلب وافقوا عليه، ويبدو ان الموافقة السريعة جاءت بناء على ما تضمنه القانون الأساسي لمجلس الجامعة نص على "**ان الغياب كان بدافع العمل للحصول على المال لدفع نفقات الدراسة**"، وبذلك فلا مانع من الموافقة على طلبه، فواصل ستراتفورد اكمال دراسته، الا انه لم يستمر فيها، لعدم تمكنه من التوفيق بين عمله ودراسته، معللا تركه الدراسة "**ان الحكومة اختارته للسفر الى إسطنبول خدمة التاج البريطاني**" (Pool, 1888, p. 15). ويبدو ما قاله ستراتفورد كان كافيا لترك دراسته، اذ انها تتطلب جهدا ووقتا كبيرين وتكاليف مالية كبيرة وفي الوقت

الذي كان فيه بأمس الحاجة للعمل. ومن جهة أخرى كانت شخصيته متأثرة بجورج كاننك وقدرته على المناقشات الطويلة والحوار في شتى القضايا السياسة، فكان عمله يتطلب اهتماما واضحا في قراءة كتب القانون والفلسفة والسياسة، وحضور الندوات الثقافية المتعلقة بشؤون المجتمعات الاوربية بصورة عامة (Byrne, 1964, p. 5)، وتأثره بكتابات الفيلسوف الهولندي ياروخ سبينوزا Baruch Spinoza في الفلسفة السياسية، والتي كانت تتعارض مع دراسته، فلم يعد قادرا على اكمال تعليمه، وغادر الجامعة نهائيا، والتي مثلت نهاية لتعليمه الرسمي وبداية حياته المهنية (Smith, 1833, p. 30).

3- زواجه

التقى ستراتفورد بهاريت رايكس Harriet Raikes، لأول مرة في حفلة موسيقية في لندن، وهي ابنة حاكم بنك بريطانيا السابق، وكان والدها شخصية اقتصادية بارزة في بريطانيا، وبحكم العلاقة القديمة بين عائلتي كاننك ورايكس، دعا والدها ستراتفورد لزيارة منزله الريفي، وهناك رأى هارييت للمرة الثانية، والتي وصفها بأنها ذات جمال وجاذبية مميزة، إضافة الى كونها بارعة بالموسيقى (Warr, 1989, p. 6). ويبدو ان ستراتفورد قد وقع في حبها، وتحايل في سبيل رؤيتها عدة مرات حتى قرر الزواج منها في اليوم الثالث من اب 1816، وأقيم الحفل في منزل والدها، وبدأ حياته الجديدة، لاسيما انه تزوج من طبقة غنية، وكان عليه ان يوفر متطلبات زوجته، ولكن مع كونها قنوعة ولم تطلب منه أي شيء، علما انها كانت تعرف جيدا إمكاناته المادية ووظيفته، الا ان هذا الزواج لم يستمر طويلا، فقد توفيت زوجته والطفل اثناء الولادة في سويسرا في حزيران عام 1817 (Hunt, 2001, p. 301).

لم ينسى ستراتفورد حياته الاجتماعية على الرغم من انشغاله ببناء مجده السياسي، فبعد مرور قرابة التسع سنوات على زواجه الأول، فقد تزوج للمرة الثانية وكان يبلغ التاسعة والثلاثين من عمره في ذلك الوقت، في الثالث من أيلول 1825 من إليزا ألكسندر Eliza Alexander البالغة من العمر ثمانية عشر عاما، ابنة أحد أعضاء شركة الهند الشرقية ونائب في البرلمان البريطاني. وكان سعيدا بزواجه اذ قال عنها "**عشت بعد عام 1825 بسعادة كبيرة... حيث عملت زوجته على إقامة بيت مثالي لسياسي مثله**" (Pool, 1888, p. 384). مما يدل ذلك على اهتمامها البالغ بزوجها طيلة حياتها، وبمشواره السياسي الذي يسير فيه بخطى سريعة وواثقة .كانت اليزا مثال للزوجة الصالحة على الرغم من فارق العمر بينهما الا انها تعاملت معه بذكاء، فقد ساندته للوصول الى اعلى المناصب، حيث مارست دور الزوجة والأب لستراتفورد، لأنها تدرك ان الزواج السعيد هو هدف وطموح أعظم رجال السياسة. وأثمر زواجهما عن ثلاثة بنات هم لويزا وكاثرين وماري (Smith, 1833, p. 95).

ثانيا: بواكير نشاطه الدبلوماسي (1807–1810)

1– تعينه سكرتير اول في وزارة الخارجية البريطانية 1807

دخل ستراتفورد المعترك السياسي بالتزامن مع تعيين جورج كاننك بمنصب وزير الخارجية البريطانية في اذار 1807، وقد طلب منه مرافقته للعيش معه في منزله، فسارع ستراتفورد الى انهاء الترتيبات اللازمة بأداء امتحاناته النهائية، وقد وظفه ككاتب في وزارة الخارجية، وكانت تلك البداية السياسية له، لا سيما انه بلغ الواحد والعشرين من عمره، وكان عمله يتمثل اساسا في اعداد ملخصات للمراسلات الرسمية بين وزير الخارجية والوكلاء الدبلوماسيين العاملين في الخارج، وكان ذلك العمل يمثل نقطة تحول مهمة في حياته(Hunt, 2001, p. 137). ، لأنه مكنه من الاتصال بالكثير من أعضاء الحكومة البريطانية، وعرفه بشخصيات دبلوماسية مهمة على مستوى سفراء وممثلين بعض الدول الاوربية، فضلا عن جمعه المعلومات الخاصة بالعمل الدبلوماسي الخارجي، مما ساهم في بلورة أفكاره في تلك الحقبة أبرزها المسائل الخارجية، وعلى ضرورة العمل للحد من منافسة الدول الاوربية للإمبراطورية البريطانية في مجال التوسع الاستعماري .(Byrne, 1964, p. 11)، يمكن القول مما سبق ان ستراتفورد قد اكتسب الكثير من الخبرات من خلال عمله، والتي أدت دورا في حصوله على منصب وظيفي اعلى، بعد ان اشيع في الأوساط السياسية بأنه سيرسل في بعثة دبلوماسية الى الدنمارك "**لتصفية الأجواء من خلال تبادل وجهات النظر وإقامة تحالف دفاعي**".(Smith, 1833, p. 31).

كانت الحكومة البريطانية في هذا الوقت تراقب بحذر تطورات معاهدة تيلست Tilsit وبنودها السرية، اذ وردت معلومات من السفير البريطاني في سانت بطرسبورغ جرانفيل ليفسون Granville Leveson (1807–1812) "**بأنه حذر من احتمالية قيام فرنسا بهجوم مباغت على بريطانيا**". علم وزير خارجية بريطانيا جورج كاننك في عام 1807 بأن: "**هناك مؤامرة ضخمة تحيكها فرنسا ضد بلاده**"، وأفادت التقارير السرية للوكلاء البريطانيين "**ان الدنمارك كانت قد وقعت تحت ضغط من قبل نابليون بونابرت للانضمام اليه في حلف ضد بريطانيا، وان عليها ان تغلق بحر البلطيق بوجه السفن التجارية البريطانية فورا او ان تسيطر فرنسا على الاسطول الدنماركي**" (Rose, 1904, p. 157) . لقد اجبرت التطورات الدولية الحكومة البريطانية في اب 1807 بأرسال قوة عسكرية مؤلفة من خمسة وعشرين ألف مقاتل في أوائل أيلول من العام نفسه، لمطالبة ولي العهد الدنماركي فريدريك السادس Frederick VI لاحقا بعقد حلف دفاعي هجومي مع بريطانيا". وان اسطولهم سوف يصبح رهينة لدى البريطانيين حتى يوقعوا على عقد الحلف، رفض الطلب البريطاني "**بكياسة ولطافة**". الا ان جورج كاننك كان مصرا على افشال المخططات الفرنسية،

فقامت القوات البريطانية بقصف كوبنهاغن واستولت على الاسطول الدنماركي (Petrie, 1954, p. 116) .

بدأت أفكار ستراتفورد السياسية تتبلور عندما شغل منصب سكرتير اول في وزارة الخارجية البريطانية عام 1807 ولتفانيه واخلاصه في عمله، فقد شهدت تلك المرحلة احداثا اثرت عليه، وقد حفرت اثارها في مخيلته، وذلك بعد ان أعلن نابليون عن نيته غزو بريطانيا، والتي ولدت في نفسه الشك والريبة تجاه فرنسا، وحول هذه الاحداث كتب قائلا: "**ان القوة الوحيدة التي تستطيع مواجهة المد الفرنسي هي بريطانيا**"(Endorf, 2008, p. 13) . مما يدل ان كلماته كانت سليمة ولا تدل على انه مبتدئ في الشؤون السياسية الخارجية.

عبر ستراتفورد عن رأيه من انتقاد حزب الاحرار المعارض للحكومة البريطانية وتورطها بالاعتداء على دولة مستقلة في برقية بعثها الى وزير الخارجية جورج كاننك "**برر فيها تصرف الحكومة ودافع عنها من اجل الحفاظ على مصالحها الخاصة**" (Smith, 1833, p. 31) . ان ذلك التصريح يعد نقطة تحول مهمة في حياته السياسية، ومدى تأثره بجورج كاننك الذي أصبح يعده مثله الأعلى في العمل الدبلوماسي.

ظل ستراتفورد يمارس مهامه في ظل ظروف صعبة ومعقدة اذ كانت الحرب مستمرة مع فرنسا، وكانت فرصة عظيمة اظهر من خلالها تميز واضح ونجاح شخصيته الوظيفية وقدراته الفائقة على العمل، وكان مسؤولا على الوثائق والحفاظ عليها من الضياع، وحرصه الكبير على القيام بواجبه بالشكل الأمثل، نالت اعجاب معاصريه (Pool, 1888, p. 24).

مالت الجهود الدبلوماسية العسكرية البريطانية الى الهدوء على نحو ملحوظ بعد التدخل البريطاني في الدنمارك، لذا ارتأى جورج كاننك ارسال مبعوث على مستوى اعلى وهو انطوني ميري (1756–1835) Anthony Merry، يرافقه ستراتفورد في تشرين الثاني 1807 للتفاوض مع ولي العهد الدنماركي، كرستيان فردريك Christian Frederik بهدف تقوية العلاقة مع الدنمارك على أساس صلب جدا من خلال عقد تحالف ثنائي بين البلدين. ولخص انطوني ميري دوافع بعثته الى كوبنهاغن بأنها "**مهمة متعددة ومهمة لتخليص الدنمارك من تهديدات الفرنسيين، وإنعاش العلاقة بين البلدين**"، وبعد ان وصل انطوني ميري الى كوبنهاغن في منتصف كانون الأول 1807 التقى بشخصيات سياسية، وعبر عن رغبة حكومته استمرار علاقة الصداقة التي تربط البلدين، اما ستراتفورد فقد أوضح لوزارة الخارجية الدنماركية مهمة البعثة البريطانية (Smith, 1833, p. 31).

سنحت الفرصة لستراتفورد كاننك ان يلقى خطبة في جلسة المفاوضات المنعقدة في السادس عشر من كانون الأول 1807، ووضح ملاحظات جورج كاننك وجادل ان التدخل البريطاني في الدنمارك مطلوب لان الاسطول الدنماركي كان مهددا بالوقوع في اسر نابليون، بالرغم من ان

ستراتفورد أقر بأن: "**استغلال الدول يجب ان تحترم، وتعتذر حكومته عن حادثة الاعتداء التي وقعت**" (Byrne, 1964, p. 12)، اعطى ذلك الخطاب وزنا وثقلا سياسيا لستراتفورد، لأنه كان خطاب مميز تطرق فيه الى القانون والسياسة الخارجية.

لم تأت المفاوضات بين الطرفين بنتيجة تذكر إزاء تعنت وتحفظ الحكومة الدنماركية، وهذا ما كان واضحا جدا من خلال المناقشات، اذ لم يشعروا بالارتياح لان بريطانيا لم تكن تحظى بأي شعبية في البلاد منذ الهجوم عليها، وبعد ان فشلت المهمة عادت البعثة الى بريطانيا دون ان تحقق أهدافها (Warr, 1989, p. 7). يتضح لنا مما سبق مدى جدية ونشاط ستراتفورد وحرصه على تدوين الملاحظات والاجتماعات اليومية مما اكسبته الكثير من الخبرات الدبلوماسية.

2- دور ستراتفورد كاننك في بعثة روبرت أدير الى الدولة العثمانية (1808-1810)

كانت بريطانيا تراقب التطورات التي حدثت في أوروبا بسبب الحملات الفرنسية المتمثلة بسياسة نابليون التوسعية، وفي خضم العمليات الفرنسية ضد روسيا وبروسيا، سعى نابليون سابقا في عام 1806 الى توطيد علاقاته مع الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثالث (1761-1807)، والقضاء على الحلف العثماني الروسي في عام 1806، اذ كانت مهمته منع السفن الحربية الروسية من عبور المضائق العثمانية، مما سيضمن له هدف في التوصل الى حلف مع الدولة العثمانية، واستخدامها كسلاح ضد اعدائه. وعملت بريطانيا وروسيا معا لتخليص الدولة العثمانية من النفوذ الفرنسي، ولتحقيق هذا الهدف أمرت الحكومة البريطانية الاميرال دوكورث Duckworth، في الثالث عشر من كانون الثاني 1807 بالتوجه الى اسطنبول عبر الدردنيل Dardanelles، مما أدى الى قطع بريطانيا علاقاتها الدبلوماسية مع الدولة العثمانية (Karal, 2007, p. 23) .

على أثر تلك التطورات التي شهدتها أوروبا بعد معاهدة تيلست، اخذت بريطانيا بالتقرب من الدولة العثمانية، اذ تخلت روسيا عن حليفتها بريطانيا، وتسربت الاخبار بأن حلفاء المعاهدة يتفاوضون من اجل تقسيم الدولة العثمانية، فتبنت بريطانيا سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية، وعدم السماح لروسيا بالسيطرة على إسطنبول ومضائق البسفور والدردنيل إذا اريد الحفاظ على توازن القوى في أوروبا، فضلا عما شهدته العاصمة العثمانية من احداث مناهضة لفرنسا اذ لم تمر من دون الاهتمام بها من بريطانيا(Rose, 1906, p. 62) .

من جانب اخر وضح جورج كاننك اهداف سياسة بريطانيا تجاه الدولة العثمانية عند تعيين السير روبرت أدير Robert Adair (1763-1855)، لتولي مهام البعثة الدبلوماسية البريطانية الى إسطنبول، وتكليف ستراتفورد مساعدا له في المهمة، التي لخصها في "**الحفاظ على الدولة**

العثمانية، واستمرار التفاوض على السلام وإعادة العلاقات الدبلوماسية..." (Temperley, 1936, p. 46) .

دافع جورج كاننك عن اختياره ستراتفورد لتمثيل بريطانيا في بعثة ادير بقوله:"**انه يملك القدرة والطريقة الخاصة في التعامل وسيقوم بتقديم المساعدة اللازمة التي يحتاجها ادير...**" (Rose, 1906, p. 66) . ان اللافت للنظر هنا اختلاف تفاسير الباحثين لاختيار ستراتفورد، فمنهم من وجدها قد جاء بناء على جهوده، ويرى اخرون ان جورج كاننك كان له هدف من تواجده في البعثة وهو مراقبة عمل ادير كونهم ذا اتجاهات سياسية مختلفة (TNA, F.O., 352/1/3, 193, 1808)، يبدو ان حصول ستراتفورد على هذا المنصب نتيجة عمله المتواصل، وجهوده الذاتية التي يبذلها من اجل بناء علاقات جيدة مع الشخصيات السياسية المؤثرة.

غادر ادير في نهاية تموز 1808، ترافقه حاشية من الموظفين البريطانيين، وعددا من الجنود، مزودا بتعليمات هامة من جورج كاننك جاء فيها "**اوصيك بضرورة السعي الى احباط المشروع الذي تبنته فرنسا للحصول على اذن من الباب العالي باستخدام المضائق العثمانية البسفور والدردنيل كمنطقة عبور لغرض تحشيد القوات ومهاجمة الهند البريطانية**" (TNA, F.O., 195/1/27, 1808)، الامر الذي شجع ادير على الالتزام بموقفه إزاء صنع السلام مع العثمانيين اثناء وصول البعثة.

وصلت البعثة مع سفينتين حربيتين بريطانيتين رست قبالة مضيق الدردنيل في نهاية أيلول 1808 ومنعت من الدخول اليه، وكبادرة حسن نية أوقف البريطانيون تدخلهم في الملاحة العثمانية، ونشط ستراتفورد في مجال توثيق العلاقات مع المسؤولين العثمانيين وفي مقدمتهم حاكم الدردنيل حقي محمد باشا (1747–1811)، وقدم مذكرة في العاشر من تشرين الاول 1808 الى السلطان محمود الثاني (1785_1839)، عن طريق رئيس الكتاب محمد غالب افندي (1764–1829) طمأن فيها السلطان العثماني بشأن التجارة العثمانية ستكون في مأمن من اي عمل عدائي بريطاني، انسجاما مع علاقات المودة بين الدولتين، والواقع ان البريطانيين قد هددوا سابقا بفرض حصار على السواحل العثمانية (Adair, 1845, p. 36) . من جانب اخر استثمر ادير مهارة وخبرة ستراتفورد بعد نجاح محادثاته مع حقي محمد باشا، فطرح موضوع قطع العلاقات العثمانية مع فرنسا النابليونية، وخاطب محمد غالب افندي قائلا: "**ان فرنسا وروسيا اتفقتا على تقسيم الأراضي التابعة للدولة العثمانية في منطقة البلقان (صربيا وبلغاريا) فالأفضل العمل على التفاوض مع بريطانيا فتتعزز العلاقة الوثيقة بين البلدي وتجنون الفوائد لدولتكم...**". يبدو ان ريس أفندي اقتنع وابدى استعداده للتفاوض وتوقيع معاهدة السلام مع بريطانيا، الا ان بعض المسؤولين العثمانيين كانوا مترددين، فأن ذلك لم يثن من عزيمة ستراتفورد فقد اتصل بحقي باشا

وطلب حضوره الى الدردنيل لبدء المباحثات التمهيدية مع ادير، ونتج عن هذا اللقاء تعيين محمد امين أفندي (1780–1828)، مفوضا رسميا للمفاوضات، فهيأ ستراتفورد الأجواء المناسبة له لمقابلة رئيس البعثة البريطانية، تبع ذلك عدة أيام ولم يصل محمد امين أفندي، وكان ستراتفورد في انتظاره (TNA, F.O., 352/1/2B, 1808).

هكذا يتبين ان الحكومة العثمانية ارادت التكتم على وجود تلك المفاوضات خشية من اثارة فرنسا، وكبادرة حسن النية فقد أصدرت امرا بعزل حقي باشا، وعينت بدلا عنه راغويل باشا حاكما لمنطقة الدردنيل، لكن وبعدما تأكد للحكومة العثمانية معرفة الفرنسيين بحقيقة ما كان يجري من مباحثات، خرجت من صمتها وأعلنت مغادرة مفوضيها محمد امين أفندي وراغويل باشا إسطنبول فعليا الى الدردنيل(Adair, 1845, p. 40) .

في التاسع من تشرين الثاني 1808 وصل مبعوثا الدولة العثمانية الى قلعة جناق Canak، وحال وصولهم اتصلوا بستراتفورد بهدف اطلاعه برغبة الدولة العثمانية في ابرام السلام مع بريطانيا، وعقد اول اجتماع لهم في الحادي عشر من تشرين الثاني ومثل الحكومة العثمانية فيها محمد امين أفندي وراغويل باشا، فيما مثل الحكومة البريطانية ادير وستراتفورد، وافتتح الاخير الاجتماع بخطاب جاء فيه: "**بأن الحكومة البريطانية ستعبر عن سعادتها إذا وافق السلطان العثماني على تجديد الحلف العثماني – البريطاني وإعادة النشاط التجاري البريطاني في انحاء الدولة العثمانية**" (TNA, F.O., 352/1/2B, 1808). أعقب ذلك اجتماع اخر في السادس والعشرين من الشهر نفسه، غير ان الجانبين لم يتوصلا الى أي اتفاق بسبب الاضطرابات السياسية في العاصمة العثمانية، وعدم تمكن السلطان محمود الثاني من السيطرة على الأوضاع فيها، جعلت مفاوضات الدردنيل تتعثر، واخذ صبر ستراتفورد ينفذ، مما دفع ادير الى ان يقدم انذارا للحكومة العثمانية، بفرض حصار بحري على الدردنيل وميناء ازمير يمنع بموجبه وصول المواد الغذائية والمؤن الى إسطنبول، مما يعرض سكانها لخطر المجاعة، وابلغ ستراتفورد راغويل باشا: "**ان ادير سيقطع المفاوضات ويبحر الى لندن وان الحرب ستعلن قريبا**"(Adair, 1845, pp. 86-88) .

من الواضح ان تأثير ستراتفورد المباشر هو الذي شجع السلطان محمود الثاني على استئناف المفاوضات.

يبدو ان التحذير البريطاني قد حفز السلطان محمود الثاني الى العودة للمفاوضات مرة اخرى، فتم استئنافها في الأول من كانون الثاني، ورحب ستراتفورد بعودة محمد امين أفندي الى الدردنيل مع صلاحيات كاملة للتفاوض مع ادير، وعدها خطوة في الاتجاه الصحيح، وأعلن قائلا: "**ان لا شيء بعد الان يمنع من عودة العلاقات الدبلوماسية مع الدولة العثمانية الى سابق عهدها...**" . (Smith, 1933, p. 34) واختتمت المباحثات العثمانية – البريطانية في الخامس من كانون الثاني

1809، بالتوقيع على معاهدة الدردنيل او ما تسمى "**بالقلعة السلطانية**" للسلام والتجارة (Wood, 1935, p. 50)، وتألفت من احدى عشر مادة بالإضافة الى خمسة بنود سرية وخاتمة (TNA, F.O., 93/110/2, 1808)، ولأجل وضع بنود معاهدة الدردنيل موضع التنفيذ وتأثيرها في مسيرة العلاقات بين الدولتين، فقد أبحر ادير الى إسطنبول على متن إحدى السفن الحربية البريطانية، ووصل العاصمة العثمانية في الثاني عشر من كانون الثاني 1809 (TNA, F.O., 352/1/2B, 1809).

في تلك المرحلة بالذات ولغرض وضع النقاط على الحروف من قبل البريطانيين بدأوا يتحدثون بشكل واسع عن سياسة جديدة أطلقوا عليها احتواء الدولة العثمانية على المستويين السياسي والاقتصادي، وكانت تلك السياسة من بنات أفكار ستراتفورد الذي قال انها تعني "**ان الصداقة البريطانية العثمانية ستدر على بريطانيا بفائدة كبيرة ولا سيما في تعاملها مع روسيا لأنها كانت تعني تعذر دخول السفن الروسية الحربية منطقة شرق البحر المتوسط في الأوقات الاعتيادية، وعلى العكس فأنه طالما كانت الدولة العثمانية مرتبطة ببريطانيا في أي صراع روسي – بريطاني فأنه باستطاعة السفن الحربية البريطانية الدخول الى مضائق البسفور والدردنيل لتوجيه ضربة ضد السواحل الروسية**"(Smith, 1933, p. 35) . (Adair, 1845, pp. 88-89) . على الرغم من ان هذا الاجراء أدى الى إيقاف موقف للتجارة البريطانية، الا ان ستراتفورد ايد هذا الإيقاف لأنه يرى بأن بريطانيا كانت ستعمل نفس الشيء لو انها امتلكت مضائق البسفور والدردنيل.

بعد هذا النجاح الذي حققه ادير في إسطنبول في خدمة مصالح بلاده، وجهت بريطانيا اهتمامها للأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية، لكونها تختلف عما كانت عليه في العهود السابقة، وبالأخص مشكلة الإصلاحات باعتبارها حالة متلازمة للسياسة الداخلية العثمانية، وقد أشار ادير الى "**الجهود المتداولة من السلطة العثمانية الى إيجاد حلول للقضاء على التهديد الذي يحيط بها بسبب الهزائم العسكرية وخسارة أراضيها ... مما جعلها أكثر وضوح ومنهجية في تحديث وإصلاح أجهزة الدولة العثمانية ... لكي تحافظ على ممتلكاتها وتبقى صامدة امام التحديات الخارجية...**" (Karal, 2007, pp. 115-118) . علق ستراتفورد على الموضوع ذاته بالقول "**في بلد متأخر خال من الانظمة... ويسير على تقاليد قديمة، فأن السلطان محمود الثاني وسياسته الصارمة لتنفيذ ومواصلة الإصلاح مع استيعاب الإنكشارية ... ماهي الا ممارسة ذكية للسلطان**" (Keleş, 2014, p. 297)، ويعني هذا ان شخصية السلطان ذا أهمية حساسة للدولة، لان قدراته وامكاناته يستفاد منها الشعب والدولة .

في إطار متابعة ادير للأوضاع الداخلية في الدولة العثمانية، طلب من ستراتفورد اعداد دراسة شاملة عن تمرد الإنكشارية والصراعات السياسية حول الإصلاح، وقد استند في تقريره الى علاقاته مع شخصيات سياسية شغلت مناصب إدارية في الدولة، الامر الذي مكنه من الوقوف على أسباب ثورات الإنكشارية، فقدم رسالة بعنوان "**التمردات الأخيرة في الدولة العثمانية**" الى ادير في شباط 1809، وهو عبارة عن تقرير يتألف من ثلاثة فصول (TNA, F.O., 78/63, 182, 1809). اكد في مقدمة تقريره على اهم الثورات التي شهدتها الدولة العثمانية من (1805–1808) باعتبارها مظهر من مظاهر النضال السياسي العثماني، وغايتها تبني التحديث الغربي، وقد ساهمت تلك الاحداث بوصول محمود الثاني للسلطة (TNA, F.O., 352/1/3, 204 1809)، كما اكد على الإصلاح في تقريره الذي هو الأساس للنهوض بالدولة، وبين قواعدها، وعلى أهمية دور العلماء الإصلاحي، الا انهم كما يقول عاجزين وغير قادرين على القيام بواجباتهم، ثم علل سبب العجز وارجعه الى الأنظمة التقليدية وعدم اكتراثهم العمل بالأنظمة الاوربية الحديثة (Smith, 1933, p. 36)، كما اكد على أهمية اصلاح المؤسسة العسكرية من خلال الانضباط وتزويد الجيش بالآلات التي يجري استحداثها وتدريبهم على استعمالها، فضلا عن نقاط عديدة تتعلق في كيفية انفتاح الدولة العثمانية على المؤسسات الاوربية (Akyıldız, 1993, p. 45)، ويبدو ان ستراتفورد كان يؤيد عملية الإصلاح لأسباب مصلحية، اذ ان هذا الامر سيساعد في الحفاظ على كيان الدولة العثمانية، وهذا من شأنه ان يؤمن مصالحهم فيها، ويحفظ مركزهم في البحر المتوسط وسلامة مواصلاتهم من الهند، كما انه يعد وسيلة مناسبة لوقف مطامع روسيا وفرنسا في المنطقة.

في بداية نيسان 1809، شعر ستراتفورد باليأس من عدم الوصول الى حل مع ادير نتيجة إصراره على مغادرة إسطنبول بسبب مرضه، لذلك قرر الأخير اقناع ستراتفورد ليصبح رئيسا للبعثة البريطانية في إسطنبول برتبة سفير بعد مغادرته (TNA, F.O., 352/1/3, 204 1809)، وفي المقابل كان ستراتفورد قد تكون لديه انطباع حول احتمالية حصول موافقة مسبقة من جورج كاننك على تعينه بديلا عن ادير، فبعث ببرقية الى جورج على تعينه اقترح فيها في ان يرسل بديلا عنه حيث قال: "**أنى أجد نفسي محاصرا فعليا في إسطنبول واشعر بالسوء...**" (BOA., HAT, 1275/49513, 1809)، الا ان جورج حاول طمأنته عندما أرسل اليه توجيهات جديدة في التاسع من تشرين الأول 1809 جاء فيها: "**لديك موهبة سوف تكون مفيدا فيها لبلدك، ويجب الا تتخلى عنها بسهولة**"(TNA, F.O., 352/1/3, 213, 1810)، لذا لم يستطيع ستراتفورد تجاهل نصيحة معلمه جورج فقرر البقاء في إسطنبول واستلام مهام عمله الجديد، لا سيما بعد مغادرة ادير في الثاني عشر من تموز 1810 على متن احدى السفن البريطانية الى لندن (TNA, F.O., 78/68, 67, 1810) . وهكذا يتضح ان ستراتفورد قد ساهم في خدمة بلاده من خلال تواجده في بعثة ادير،

فكان يعتبر من الساسة المؤمنين بجدية التهديد الفرنسي الروسي، وشاركه في ذلك ادير، مما ساعده على تطوير مهاراته الدبلوماسية مستقبلا.

ثالثا: ستراتفورد كاننك سفيرا في إسطنبول (1810-1812)

1- توليه سفارة اسطنبول ومنهجه السياسي

عين ستراتفورد في الرابع عشر من تموز 1810 سفيرا في إسطنبول، وذلك لأنه كان يمتلك العديد من المؤهلات للقيام بواجبات منصبه اذ مارس العمل الحكومي، وألم بمعظم الأعراف الدبلوماسية، كما ان امكانياته وقدراته اعطته جاهزية للوصول الى هذ المنصب (BOA., HAT, 1178/46522, 1810). واجه في مهمته العديد من القضايا والأزمات وابرزها شفرات المراسلات السرية مع روسيا، بدأ من مكتب السفير البريطاني في إسطنبول عبر فيينا ثم الى سانت بطرسبورغ، والذي يمكن ان يطلق عليه "**أنشطة خاصة**"، وقدمت هذه الأنشطة وسيلة اتصال مهمة بين البريطانيين والروس، على الرغم من ان العثمانيين قد ابدوا قلقهم الشديد من ان الطرفين ربما يخططون للتحالف سريا، الامر الذي دفع العثمانيين بأرسال برقية الى الحكومة البريطانية بطلب منها ان يلفت نظر وزير الخارجية البريطاني من انه ينبغي ان يكون لهم حق الاطلاع وقراءة جميع المراسلات المتبادلة بين بريطانيا وروسيا (Anderson, 1954, p. 40). يستشف من ذلك ان ستراتفورد أراد مسك كل "**خيوط اللعبة بيديه**" ان جاز التعبير، خشية ان يخرج الموقف منه ومن ثم تفتح أبواب الدولة العثمانية بوجه الروس الذين كانوا يبحثون عن الفرصة الملائمة لتفويض اركان الحلف البريطاني- العثماني، وحتى لا يتحقق ذلك ناقش ستراتفورد وزير الخارجية البريطاني اللورد ارثر ويلسلي Arthur Wellesley(1769-1852) الموضوع من كل جوانبه (TNA, F.O., 78/70, 129, 1810) في الخامس من اب 1810، استلم ويلسلي تقرير من ستراتفورد بعنوان "**توقعات حول مصير العلاقات بين الدولة العثمانية وروسيا**"، واهم ما جاء فيه "**انه علل كل الاتصالات السرية السابقة مع روسيا فهي لغرض صنع السلام مع العثمانيين، ورغب بالتصرف لوحدة للقيام بوساطة بريطانية من اجل السلام، واعطى صورة واضحة للوضع العسكري في أوروبا، وكان الهدف من ذلك ان يثبت للعثمانيين إمكانية تعرضهم لهجوم فرنسي، ويجب عليهم الاعتراف ببريطانيا كحليف مهم**"(TNA, F.O., 352/1/7A, 409, 1810) لقد كانت تحليلات ستراتفورد دقيقة بهذا الشأن، ونجح في اقناع ويلسلي بمواجهة التحركات الفرنسية، لاسيما ان العلاقات العثمانية-الفرنسية تمر في ظروف حرجة، مما سيعزز روابط العلاقات مع الدولة العثمانية، لذ طلب الأخير من ستراتفورد في الخامس والعشرين من اب 1810 بالاستمرار في اعداد التقارير، وارسالها الى بريطانيا لإبقاء حكومته على الاطلاع بأهم الاحداث في الدولة العثمانية . (Neale, 1928, p. 205)

حرص ستراتفورد على العمل بوتيرة مكثفة واقام علاقات وثيقة مع المسؤولين العثمانيين، وسعيه الحثيث لآن تأخذ بريطانيا مكانتها في السياسة الأوروبية، وعد نفسه مسؤولا امام الوزارة التي يعمل فيها، وكتلميذ لجورج كاننك اذ اتخذ خلال تلك المرحلة منهجا في السياسة الخارجية، من خلال تركيزه على عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى بقدر ما يمس المصالح البريطانية (Pool, 1888, p. 153) . ورأى ستراتفورد ان من واجب الدبلوماسية البريطانية هو الحفاظ على السلام، وسعى لتطبيق هذه المعادلة من خلال محاولة إزالة كل النتائج المترتبة على ما يسمى "**القرصنة الفرنسية في بحر ايجه**" وقد كان لذلك اثار سلبية تجلت في تصرفاتهم غير النظامية وتماديهم في سرقة السفن البريطانية وبيع بضائعها في موانئ دول البحر المتوسط التابعة للعثمانيين (BOA., HAT, 1291/592, 1810). وعبر ستراتفورد عن مخاوفه على تجارة بلاده من الاعتداءات الفرنسية في الثالث من أيلول 1810 بقوله: "**أنى أجد صعوبة كبيرة في عدم فهم أسباب التقاعس العثماني تجاه الفرنسيين...**" (TNA, F.O., 352/1/7A, 344, 1810) . ومع ذلك لا يمكن القول ان الأمور كانت جيدة الى حد كبير بين ستراتفورد والمسؤولين العثمانيين نظرا لخوفهم من الفرنسيين.

وعلى كل حال اشتدت وتيرة الحرب العثمانية – الروسية، وتمكن الروس خلال عام 1810 من احتلال اهم القلاع على نهر الدانوب وأصبح موقعهم العسكري جيد، وإزاء هذا التطور تابعت الدبلوماسية البريطانية النشاط الروسي بحذر، وفي المقابلة التي اجراها ستراتفورد مع محمد غالب باشا في العاشر من تشرين الأول 1810 ازداد قلقه من ان العثمانيين قد يكونون في الواقع على وشك الهزيمة، وهي نتيجة من شأنها ان تدفعهم الى التقارب من الفرنسيين (TNA, F.O., 78/70, 129, 1810). وعبر ستراتفورد عن استعداد بريطانيا لتقديم المساعدة للدولة العثمانية وتنظيم جهازها الحكومي ومؤسساتها العسكرية، وعندما استفسر محمد غالب باشا عن شكوكه في ان بريطانيا وروسيا قد تحالفا سريا ضدهم، رد ستراتفورد بأن: "**هذا الكلام لا يمكن قبوله**" وبعد جدال طويل خلص ستراتفورد الى القول: "**فنحن أصدقاء وحلفاء في زمن السلم والحرب، فالفوائد متبادلة بيننا ... لأنه يعد الأساس لتوازن القوى الذي باستطاعته الحفاظ على السلام**" (TNA, F.O., 352/1/7A, 345, 1810)، ويبدو ان ستراتفورد أراد ان يوضح لمحمد غالب باشا ان بريطانيا حريصة على ان يكون لها حلف دائم معها ضد جميع اعدائها. وكان ذلك في الوقت الذي عبر فيه عن استيائه من سياسة بلاده تجاه الدولة العثمانية اذ بعث رسالة في التاسع عشر من تشرين الأول 1810، الى حكومته انتقد فيها سياسة وزير الخارجية ويلسلي تجاه الحرب العثمانية الروسية، وحدد النقص التام في المعلومات الاستخباراتية والتوجيهات المرسلة من لندن (Pool, 1888, p. 91)، وواصل حديثه عن وزارة الخارجية، وخشي من ان ويلسلي لم يكن له علم مطلقا بكيفية التعامل مع

الحرب العثمانية الروسية والقرصنة الفرنسية، وبالوضع الدبلوماسي في منطقة شرق البحر المتوسط بأكمله، ولم يقدم أي حلول حول هذه القضايا المهمة، ومثل هذه الافعال وجدها ستراتفورد انها تهدد توازن القوى في أوروبا وضد مصالح بريطانيا في تبني سياسة حماية الدولة العثمانية (TNA, F.O., 78/70, 254, 1810).

واصل ستراتفورد عمله بصعوبة بالغة، نتيجة الوضع العسكري العثماني المتأزم في الدانوب، حيث نجح الروس في تشرين الأول 1810 في احتلال قلعة روشوك Rusçuk العثمانية "**رودس الحالية**" الواقعة على نهر الدانوب، وكان هذا الامر مثار قلق بالنسبة له (Ivanovich, 1843, p. 62)، الامر الذي دفعه الى تحذير غالب أفندي اثناء مقابلته له في الرابع والعشرين من تشرين الأول من العام نفسه، من ان الأمور اتخذت منعطفا سيئا بالنسبة للدولة العثمانية، مما يعني "**مهما كانت الأمور سيئة من الناحية العسكرية يجب ان تكون واعيا، وضرورة اتخاذ كافة الاحتياطات، وان أكون مطلعا على كل شيء**" (TNA, F.O., 78/70, 264, 1810).

مثل ذلك اللقاء عبئ ثقيل على غالب أفندي، فقد اختلق فيه ستراتفورد الكثير من المصاعب من خلال الضغط عليه للتعبير عن آرائه، وتوجيه الأسئلة المحرجة له لاسيما فيما يخص المأزق العسكري العثماني مع روسيا، الا ان غالب أفندي حاول بشتى الطرق عدم الخضوع لتلك الضغوط، ولم يكن غالب أفندي يمتلك الخبرة الكافية في الدفاع كما هو شأن ستراتفورد الدبلوماسي البريطاني ذو الخبرة لا سيما فيما يخص المسائل السياسية(Warr, 1989, p. 31). وقد وصفت احدى الوثائق العثمانية حالة كل من ستراتفورد وغالب أفندي في اللقاء بالقول: "**لقد كانا اشبه ما يكون بفرعي متناميان من شجرة كبيرة**" (BOA., HAT, 1291/593, 1810). وعلى الرغم من ذلك، ولأيمان غالب أفندي بأن ستراتفورد يمثل وجهة نظر مشتركة بين البلدين لتحقيق السلام، لذا عرض الأخير ولأكثر من مرة على العثمانيين فكرة ممارسة الدبلوماسية السلمية، وأشار الى ذلك بقوله: "**أنى موجود في إسطنبول للتدخل وللوصول الى سلام بين العثمانيين والروس**" (TNA, F.O., 352/1/7A, 344, 1810)مما يدل ان عمل ستراتفورد الحقيقي والرئيسي في الدولة العثمانية هو ضمان المصالح البريطانية اولا والحفاظ على طريق بلاده الى الهند لتأمين المستعمرات البعيدة ثانيا، وبذلك فقد حرص ستراتفورد على تولي المسائل التي تخص المصالح البريطانية بشكل مباشر، والتي تتعلق بمسألة تأمين السفن ومسألة السلام بين العثمانيين والروس وهو ما سوف نوضحه.

2- دور ستراتفورد كاننك في تأمين السفن البريطانية الى المضائق العثمانية

اعطى ستراتفورد خلال مهمته الدبلوماسية أهمية خاصة للقرصنة الفرنسية وجعلها من اوليات مهمته، ولا سيما انها كانت تعني الشيء الكثير بالنسبة لبريطانيا، إذا ما قورنت بالحرب العثمانية الروسية، لأن نشاط القرصنة الفرنسي قد طغى في موانئ البحر المتوسط خلال الحروب النابليونية،

وتكبدت بريطانيا من جراء ذلك خسائر اقتصادية كبيرة (Warr, 1989, p. 32). كان ستراتفورد واعيا لتلك المكائد الفرنسية فقد أشار في برقية خاصة موجهة الى وكيل وزارة الخارجية تشارلز سميث Charles Smith في الحادي والعشرين من كانون الثاني 1811 الى ان خسائر السفن البريطانية وصلت الى اعلى مستوياتها واكد له:"**ان اعمال القرصنة الفرنسية العدائية اخذت تنمو وتستفحل، واننا نمر بأوقات عصيبة وأكثر الأيام سوادا... وانني في موقف صعب، وانتظر التعليمات**" (TNA, F.O., 78/74, 143, 1811).لذلك كان شعوره بعدم الاطمئنان والخوف من مواجهة الفرنسيين والحفاظ على تأثير بريطانيا في إسطنبول على أساس لائق دون وجود اتصال من وزارة الخارجية.

خلال شهري شباط وحزيران1811 وقعت عدة حوادث قرصنة بحرية في قبرص، جزيرة سيروس Syros وقبالة جزيرة وابية Euboea في بحر ايجه، وقد تمكنت فرنسا من الاستيلاء على العديد من السفن البريطانية اثناء مرورها في البحر المتوسط وبيع بضائعها في موانئ الدولة العثمانية، (BOA., HAT, 1291/592, 1811) وبسبب استمرار تلك الاعمال قدم ستراتفورد شكوى الى محمد غالب افندي، ومما جاء فيها: "**ان الروابط التي تربطنا بكم تلزم حكومتكم القيام بأمرين، الأول اغلاق موانئها امام القرصنة الفرنسية، والثاني حظر بيع البضائع البريطانية المصادرة في الموانئ العثمانية**"(Özdemir, 2004, p. 190). كان الموقف العثماني هذه المرة أضعف مما كان متوقعا، فلم تتخذ الحكومة العثمانية اية إجراءات لمساعدة بريطانيا، فقد رغبت الدولة العثمانية ترك الأمور تسير دون تدخل، فلم يكن السلطان ولا وزرائه راغبين في اصدار أي فرمان يمنع بيع المسروقات من البضائع العثمانية او دفع تعويضات مالية للتجار البريطانيين، وأعلن غالب أفندي صراحة بأنهم لا ينوون استخدام القوة، بل سيقدمون طلبا وديا الى فرنسا لوقف قرصنتها الحربية خوفا من إجراءات انتقامية قد تتخذها فرنسا ضدهم مستقبلا .(Pool, 1888, p. 95)

حاول ستراتفورد معرفة حقيقة الموقف العثماني الرسمي من الوضع المتأزم، فالتقى برئيس الكتاب عارف محمد افندي في الثامن والعشرين من اب 1811، وعرض عليه شكاوى البريطانيين ضد اعمال القرصنة المتكررة للسفن التجارية، وحاول الوصول الى تسوية ترضي كلا الطرفين من خلال الاقتراح "**بأن قضية الحياد وصلت الى نقطة يجب ان يأخذ الباب العالي خياره وان تكون هناك خطوة لاستخدام القوة من قبلهم ضد القرصنة الفرنسية**"، لكن تم رفض هذا الاقتراح من قبل عارف محمد افندي(TNA, F.O., 352/3, 173, , 1811). وقد أسفر اللقاء عن حقيقة مهمة لستراتفورد مفادها بأن الدولة العثمانية لم تعر أي أهمية لموضوع القرصنة وكانت تغلق الباب بوجهه كلما تم طرحه، وهذا ما اوضحه بشكل جلي الباحث اوزدمير Özdemir بقوله: "**ان الحكومة**

العثمانية مازالت ليست معنا ولكنها ليست مع فرنسا ايضا... الدولة العثمانية متقلبة وتحتاج لمهارة وصبر أكثر للتدخل السريع" (Özdemir, 2004, p. 190). يتضح من خلال ما تقدم، ان التغير الذي طرأ على السياسة الدبلوماسية لستراتفورد، قد جعلته يفكر جديا بالعمل العسكري ضد القراصنة الفرنسيين، والذي بات امرا ضروريا.

ففي الثالث عشر من أيلول 1811 أرسل ستراتفورد برقية سرية الى قائد الاسطول البريطاني في البحر المتوسط الادميرال تشارلز كوتون Charles Cotton، يطلب منه "**في ظل الظروف الحالية ان من واجبه التهيؤ والاستعداد للتخلص من الفرنسيين والقيام بمناورات بحرية في البحر المتوسط بهدف التدريب وتحسين أداء الاسطول البريطاني ورفع جاهزيته**"، واتفق مع ستراتفورد فيما طرحه لكنه علق موافقته بموافقة لندن فقال: "**ان مثل هكذا عمل عسكري يجب ان يخضع الى تفكير طويل واذن من الحكومة**" (TNA, F.O., 78/74, 352, 1811). كان ستراتفورد يعتقد بأن الاسطول البريطاني قادر على القيام بعمل عسكري حاسم لصالح بلاده في البحر المتوسط، لكنه كان مدركا بأن هذه المهمة، سواء اكان ذلك بموافقة لندن ام بعدمها، قد يثير الدولة العثمانية ويدفعها الى عمل دبلوماسي مضاد، بيد انه فكر بالإمكان الحد من خطورة العمل العسكري من خلال عدم اثارة العثمانيين.

استولى القراصنة الفرنسيون على السفينة التجارية البريطانية "**الكسندر**" المتجهة من مالطا الى اليونان في الثامن عشر من تشرين الثاني 1811، حيث تلقى ستراتفورد معلومات دقيقة، بأن القراصنة اخذوا السفينة وحمولتها الى ميناء نابولي دي رومانيا Napoli di Romania في اليونان (BOA., C.HR., 107/5319, 1811)، فأرسل رسائل على الفور الى عارف افندي في الثالث والعشرون من تشرين الثاني من العام نفسه، يستفسر فيها عن موقف حكومته عن تلك الحادثة، واقترح عقد اجتماع رسمي لمناقشة الخلافات، وإعادة السفينة وحمولتها فورا، الا انه تملص من الإجابة تماما واكتفى بذكر "**لا تستطيع القيام بشيء**". وقد شعر ستراتفورد بخيبة امل كبيرة لإعادة السفينة البريطانية، فلم يبق امامه سوى الخيار العسكري، فقام في السابع والعشرين من تشرين الثاني 1811، بإصدار أوامره الى قائد الاسطول البريطاني هنري هوب Henry Hope في الارخبيل اليوناني، للتحرك نحو نابولي والاستعداد للهجوم على السفن الفرنسية الموجودة في الميناء (TNA, F.O., 78/74, 248, 1811) . قام القائد هوب في التاسع والعشرين من تشرين الثاني 1811، بالتحرك لمحاصرة ميناء نابولي وتحرير السفينة، وعدم الاشتباك مع الحامية العثمانية للميناء(TNA, F.O., 352/3/4A, 1811). وقد اصر ستراتفورد في طلبه من القائد هوب على احظار السفينة ألكسندر وحمولتها، لكن القائد أخبره بأن السفينة قد تضررت كثيرا ولا يمكن الاستفادة منها، اما شحنتها فتم بيعها، كما امر القائد هوب بالبقاء بالقرب من مدخل ميناء

نابولي حتى صدور تعليمات جديدة منه (TNA, F.O., 78/74, 296, 1811) ، وهكذا تنفس ستراتفورد الصعداء لأنه قد تصرف على نحو حازم عندما رفض العثمانيين طلبه، لذلك لا توجد ضرورة تستوجب اثارة العثمانيين لان الموضوع قد تم حسمه بذكاء وحكمة.

أدرك غالب أفندي مخاطر نشاط ستراتفورد على المصالح العثمانية، فأخذ يتتبع تحركاته ولقاداته عن طريق وكلائه الذين جندهم لهذا الغرض، ونزولا عند رغبة السلطان محمود الثاني، بعث غالب أفندي برسالة اليه في الثاني والعشرين من كانون الأول 1811، تضمنت عدة أسئلة جاء فيها: "**فهل أصبح من مصلحة بريطانيا وحفظا لكرامتها ان يبقى اسطولها رهينة لسياسة ستراتفورد؟ وماذا بشأن تكرار الهجوم على القرصنة الفرنسية؟ وهل ستتكرر الهجمات البريطانية؟ وكيف يمكن لبريطانيا وهي الصديقة والحليفة للدولة العثمانية الحاق الأذى بالعثمانيين؟**"، فرد عليه ستراتفورد في الثالث والعشرين من كانون الأول 1811: "**ان العمل العسكري كان قائما على قناعة تامة بأنه السبيل الوحيد للحفاظ على السلام مع العثمانيين، ووجودي في إسطنبول للحفاظ على مصلحة جلالة الملك... كما أعلن انه في حالة استمرار القرصنة الفرنسية ستكون السفن العسكرية البريطانية في حالة تأهب... وانه من الضروري ان تكون هذه المكاسب الجوهرية لتبرر التضحيات التي تقدمها خدمة للدولة العثمانية...**" (TNA, F.O., 352/3/4A, 1811)، اظهر ستراتفورد انه وحكومته قادران تماما على اتخاذ إجراءات صارمة لصالح العثمانيين.

هكذا اتضح تطابق أفكار ستراتفورد وغالب أفندي، بل ان موقف الأخير سيتضح جليا عندما اعترف رسميا بتقديم العون والدعم البريطاني للعثمانيين في كل شيء. ففي الاجتماع السري الذي عقد في السابع والعشرون من كانون الأول 1811 بين الطرفين، بدأ غالب أفندي حديثا مطولا أكد فيه بأن: "**هدفه الوحيد الحفاظ على الانسجام بين بريطانيا والدولة العثمانية التي تجمعهما مصالح مشتركة**" فرد عليه ستراتفورد قائلا: "**انني أجد نفسي مضطر للعمل بإخلاص لاستمرار مشروع الحفاظ على السلام... وأنك تتفق معي بأني متشدد في مطالبي وما انوي القيام به خدمة للدولة العثمانية...**" (TNA, F.O., 78/74, 293, 1811). ولحسن حظ ستراتفورد، أصدر الباب العالي في الثلاثين من كانون الاول 1812 فرمانا جاء فيه: "**بمنع القراصنة من ادخال سفنهم الى الموانئ العثمانية وفرض عقوبات على أي مسؤول عثماني قد يتجاهل هذه التوجيهات**". وختم الفرمان بالقول: "**ارسال نسخة منه الى القائم بالأعمال الفرنسي**" (TNA, F.O., 78/79, 1811) .

في الواقع لقد وضع ستراتفورد الباب العالي في موقف صعب جراء تنازلهم بإصدار مثل تلك التعليمات بمنع اعمال القرصنة الفرنسية في الموانئ العثمانية، لأنهم وجدوا أنفسهم انهم بحاجة الى

بريطانيا بشكل عام وستراتفورد بشكل خاص في قضية كانت أكثر أهمية بالنسبة لهم، الا وهي انهاء الحرب العثمانية – الروسية.

3- دور ستراتفورد كاننك في معاهدة بوخارست 1812

بدأت مفاوضات السلام العثمانية–الروسية في الحادي والثلاثون من تشرين الأول 1811 في منطقة يوركوي Yerkoy في البلقان، واستمرت لعدة أشهر بسبب نشوب خلافات بين الطرفين واوشكت تلك المفاوضات على الانهيار، ولكن عندما أصبح تهديد الهجوم الفرنسي على روسيا وشيكا، اضطر القيصر الروسي الكسندر الأول Alexander I (1777–1825) للتوصل الى صنع السلام مع الدولة العثمانية (Ismail, 1982, p. 190).

كتب ستراتفورد في العاشر من كانون الاول 1811 رسالة الى غالب أفندي، وعبر فيها عن موقفه بوضوح في حالة وافق السلطان محمود الثاني على عرض نابليون للتوصل الى حلف مع الدولة العثمانية قائلا: " **ان قرار السلطان بخصوص فرنسا سيترتب عليه وضع الدولة العثمانية بين فكي كماشة الاسطول الحربي البريطاني من جهة البحر، وبأن الاسطول البريطاني سيدخل مضيق الدردنيل عنوة وسيصل العاصمة العثمانية اذ وافق السلطان على عرض نابليون للتوصل الى حلف مع الدولة العثمانية**" (TNA, F.O., 62, 28, 1811) ، ويبدو ان سياسة بريطانيا ترمي الى ابعد من ذلك وتريد المساومة على حياد الحكومة العثمانية وفي نفس الوقت الذي تحاول فيه تثبيت مركزها في اسطنبول.

لم يكن رفض العثمانيين للتوصل الى حلف مع فرنسا الضربة الوحيدة التي وجهت ضد نابليون، بل كانت قناعة غالب باشا والصدر الأعظم احمد باشا، بأن ستراتفورد قادر على تحقيق التواصل مع روسيا، مما يساهم بتعزيز موقف العثمانيين للوصول الى تسوية بين الطرفين، وتمت الموافقة على المقترح من قبل الحكومة العثمانية(BOA., HAT, 1171/46317, 1811). وفي الخامس عشر من كانون الاول 1811 أرسل ستراتفورد برقية الى وزير الخارجية ويلسلي جاء فيها: "**يجب ان ابلغ سيادتكم بأن السلطان محمود الثاني قد دعاني للتواصل مع روسيا بشأن المفاوضات الحالية، ولتسهيل إحلال السلام بين العثمانيين والروس لكوني مقبولا لدى الطرفين**" (TNA, F.O., 352/3/4A, 153, 1811) . وفي الأول من كانون الثاني 1812 تسلم ستراتفورد رسالة من ويلسلي يؤكد فيه دعم الحكومة البريطانية لمشروع المفاوضات مع روسيا، وفضلا عن ذلك وزيادة في التطمينات أكد بأن ستراتفورد قادر على تحقيق الاستقرار السياسي لبلاده (TNA, F.O., 620/2, 1812).

في الخامس من كانون الثاني 1812 بدأ ستراتفورد اتصالاته مع روسيا واستمرت لعدة أيام، حول اعلان الضمانات المشتركة من اجل الشروع بالمحادثات، وأوصى ويلسلي لستراتفورد بضرورة

دعم العثمانيين كونهم لا يستطيعون القيام بعمل جدي دون مساعدة خارجية (Ismail, 1982, p. 193)، وبناء على ذلك أرسل ستراتفورد رسالة الى السفير الروسي اندريه ايتالنسكي Andrey Italinsky، وطلب منه ان يخبر حكومته عن مساعيه الرامية لأعاده النظر حول الشروط الخاصة لتثبيت الحدود بين الدولتين في الأراضي الاسيوية والاوربية وضمان بقاء الأراضي التي احتلها الروس في منطقة الاناضول تحت سيطرتهم (TNA, F.O., 78/77, 1812). عبر ايتالنسكي عن دعم بلاده لمساعي حكومة بريطانيا في تحقيق السلام، لكنه استفسر فيما إذا كان العثمانيون جادين في مواصلة المفاوضات، ورد عليه ستراتفورد بأن الحكومة العثمانية كانت تشك بمصداقية فرنسا على خلفية تخليها عن اتفاقيات سابقة (TNA, F.O., 620/2, 1812) ، فأمتنع ايتالنسكي من إعطاء رأيه بشأن تخفيف الشروط الروسية الا بعد اخذ رأي القيصر الروسي الإسكندر الأول واقتنع الطرفان بأن اجتماعا بين القيصر الروسي وستراتفورد امر ضروري لابد من عقده قريبا (Warr, 1989, p. 34). ايد السلطان محمود الثاني موقف ستراتفورد الذي أخبر صدره الأعظم في الخامس عشر من كانون الثاني 1812 بأن السفير ستراتفورد يعمل بعزم لإيجاد حل لمشاكل الدولة العثمانية وفقا للمصالح السلطانية (Pool, 1888, p. 163) . مما يدل على عمق الصداقة بين الباب العالي وبريطانيا.

خلال هذه المدة الحرجة من مفاوضات السلام، كان الدبلوماسيون الأجانب في العاصمة العثمانية إسطنبول يعمل كل منهم بحسب مصالح بلاده، فقد كان بعضهم يشارك في اجتماعات ونقاشات مع الحكومة بشأن الصلح مع روسيا، الا ان الحكومة العثمانية كانت ترى انها لن تستفيد منهم بشيء(Smith, 1933, p. 41)، ويبدو ان السلطان محمود الثاني أدرك المتغيرات الدولية وان الأوضاع في أوروبا تميل نحو التحالف البريطاني – الأوربي ضد فرنسا، لذلك فأنها لا تريد اغضاب بريطانيا. وقد علق غالب باشا على ذلك قائلا: "**لا أحد من سفراء الغرب باستثناء ستراتفورد، يعمل لصالحنا، والبقية يسعى الى تعزيز مصالحه الخاصة**" (Ismail, 1982, p. 196). استغل ستراتفورد هذه الفرصة واثار موضوع الخطة الفرنسية–النمساوية لغزو الدولة العثمانية، تلك المسألة التي تم مناقشتها مع غالب باشا في السابع عشر من كانون الثاني فذكر "**انني احتفظت بذلك المشروع وهو جزء من معلومات استخباراتية تم الحصول عليها من جهات سرية في فيينا حتى يبدو الخطر في متناول اليد من اجل ترك انطباع لدى الدولة العثمانية، وقد حانت تلك اللحظة**"، فرد غالب باشا استنادا الى التعليمات التي بحوزته فأن الباب العالي اتخذ زمام المبادرة باستدعاء السفير النمساوي إجناز لورينز Ignaz Lorenz للحصول على تفسير منطقي بهذا الشأن، وإعلان اعتراض بلاده عن أي تحالف مع الفرنسيين (TNA, F.O., 78/77, 1812). هنا لابد من الإشارة الى ان التوتر قد زاد بسبب اشتداد نوايا فرنسا التوسعية في المنطقة، فحصل

صراع دبلوماسي حاد بين روسيا وفرنسا، اذ أراد كل منهما جذب الدولة العثمانية الى جانبها، وقد اثرت المعلومات التي أرسلها ستراتفورد الى روسيا لضمان اسراعها على إتمام المعاهدة مع العثمانيين قبل انضمامها الى فرنسا (Warr, 1989, p. 35)، مما يدل ان اتصال ستراتفورد بالروس بصورة سرية يستحق المخاطرة بمنصبه لأنه كان يريد تحقيق السلام بين الروس والعثمانيين سريعا.

حرص ستراتفورد من جهة أخرى استغلال تقارب وجهات النظر بين الروس والعثمانيين واجراء مفاوضات بينهما والتوصل الى اتفاق دون علم فرنسا، وكان غالب باشا يتابع تلك المفاوضات (Pool, 1888, p. 163).يتضح ان الحكومة العثمانية كانت تراقب بدقة مراسلات ستراتفورد مع الروس. وجرت سلسلة من الاتصالات السرية بين ستراتفورد والروس بدأت في الرابع والعشرين من كانون الثاني 1812، الا انها لم تكن سوى جزء من قضيتين كانت قد شغلت بال الدبلوماسيين الروس في ذلك الوقت، القضية الأولى هي ان الاتصالات تتضمن فقرات سرية تخص الدولة العثمانية، اما الثانية فهي إخفاء الاتصالات التي يجريها ستراتفورد (TNA, F.O., 62/28, 1812).

في أوائل شباط 1812 أرسل ستراتفورد توجيهات سرية الى روسيا يطالب فيها بتحقيق شروطهم تجاه العثمانيين خاصة فيما يتعلق بخطتها للتوسع الإقليمي على حسابهم جاء فيها "**بقي علينا ان نتحقق ونعرف فيما إذا كانت روسيا لاتزال متمسكة بشروطها الخاصة بسيطرتها على منطقة القوقاز وما ورائها، وهي تضم أراضي شاسعة وغنية فضلا عن مشكلة تدخلها في شؤون صربيا، وتهدف الى فهم عرى العلاقات بين الباب العالي وروسيا، هذا هو الشك الذي ترى بريطانيا ضرورة تبديده في هذه اللحظة، وينبغي علينا ان نسعى الى توضيح الأوضاع الحقيقية في إسطنبول، ومدى التقدم الذي تسعى لأحرازه في تحقيق الأهداف والنتائج المرتقبة بين الطرفين...**"(BOA., HAT, 1351/52801, 1812). في الواقع كان من السهل على روسيا الإجابة بأنه هناك فقرة سياسية مرتبطة بالمفاوضات مع العثمانيين، لكن روسيا لم ترحب بتحقيق شروطها حول "مسألة صربيا" لأنه كان من الواضح لديها رغبة في التدخل في شؤون صربيا مستقبلا.

أصيب ستراتفورد بالدهشة من ردة فعل رئيس الكتاب عارف افندي، الا انه لم يقف مكتوف الايدي حيال الدسائس والمؤامرات التي كان يحيكها برفقة عدد من المقربين من السلطان، وقد كشفت برقيته التي بعث بها الى الباب العالي في العشرين من شباط بقوله: "**لقد انزعجت كثيرا من سلوك عارف افندي وشكوكه وتوجيه التهم وتحريض المسؤولين العثمانيين ضد عملي ومطالبتي برؤية نصوص الاتصالات السرية التي أرسلها للروس... ولا يمكنني الخضوع في كل لحظة**

لشكوك الذين لا يمكن اقناعهم... واذا استمر في تعليق ثقته فسوف اعلق كل الاتصالات السرية... وارى بوضوح انه من خلال التمثيل في خدمة الدولة العثمانية، فأنني اعرض نفسي وحكومتي لنوع من الاهانة..." (BOA., HAT, 1096/44413, 1812). وقد ادرك ستراتفورد حقيقة الموقف العثماني وسعيهم لتشديد الضغط عليه لمعرفة ما تتضمنه الاتصالات السرية المرسلة لروسيا.

لم يستطيع العثمانيين ان يعبروا عن خوفهم من الشبح الروسي فيما بينهم، على الرغم من ان تصريحاتهم العلنية كانت تشير الى عكس ذلك. ففي العاشر من اذار بدأ الوضع العثماني بالتغيير نتيجة للأجواء الدولية المتوترة، مما وفر الفرصة لستراتفورد للعب الورقة العثمانية بما يتناسب والمصالح السياسية البريطانية، فقد خطط ستراتفورد لترتيب كل الأوضاع مع الدولة العثمانية لتكون مؤهلة للاتصال مع روسيا القيصرية، وهذ ما أشار اليه في مذكرة أرسلها الى ويلسلي في الخامس عشر من اذار 1812 جاء فيها **"لقد ضحينا كثيرا وقد حان الوقت لتحقيق السلام بين العثمانيين والروس تقديرا لصداقتنا مع الباب العالي"** (TNA, F.O., 352/2A1, 1812).

كان الموقف خلال المفاوضات بين روسيا والدولة العثمانية في هذه المدة متوترا، لأن كلا الطرفين كانا في انتظار ان يستسلم الاخر تحت الضغط، علما ان ستراتفورد كان عازما على إيجاد حل للمصاعب التي واجهت كلا الطرفين، لذا قام بالضغط على الدولة العثمانية للعودة الى المفاوضات والركون الى السلام خشية على مصالحها ومناطق نفوذها من اعتداءات فرنسا وروسيا، فضلا عن استنزاف الاخيرة الكثير من الوقت في المفاوضات لعدم اثارة نابليون، الا ان توقيع الأخير على معاهدة تفاهم مع النمسا وبروسيا في العشرين من اذار عام 1812، كان سببا في مرونة موقف الروس من المفاوضات مع العثمانيين (Smith, 1933, p. 44).

عادت الاتصالات السرية مع روسيا في الخامس والعشرين من اذار 1812، وقد اوفد ستراتفورد روبرت كوردون Robert Gordon أحد اهم موظفي السفارة البريطانية في إسطنبول، للتسوية بين الطرفين، وغادر إسطنبول الى روسيا القيصرية بسرية في نيسان 1812، وهو يحمل رسالة من ستراتفورد الى ايتالينسكي للصلح، وتضمنت مقترح ستراتفورد وهو تسليم المتمردين الصرب أسلحتهم للقوات العثمانية ومنع تدخل روسيا القيصرية في القضية الصربية بشكل نهائي، والتنازل عن الأراضي التي احتلتها في الاناضول وسيطرتها على منطقة القوقاز (BOA., HAT, 1092/44329, 1812). وصل مبعوث ستراتفورد الى المقر الروسي العسكري في سيستوفا Sistova الواقع على نهر الدانوب في بوخارست، واعترف كوردون عند مقابلة ايتالينسكي في السابع عشر من نيسان 1812 **"بأننا نختلف في وجهات النظر فيما يتعلق بصربيا والقوقاز"**، الا

ان ايتالنسكي ذكره "**بأن مشكلتهم الرئيسية هي ان قواتهم تم الاحتفاظ بها في مقاطعات الدانوب، والتي قد تكون اكثر فائدة في مناطق أخرى**"، فرد عليه كوردون: "**بأن الأمور قد تغيرت، وهناك بعض الأمور اجد نفسي مضطر لعملها بإخلاص لتحقيق السلام مع العثمانيين... وارغب في دعمكم كحليف حقيقي، وانه من الضروري ان تكون هذه المكاسب جوهرية لتبرر ما تقدمه حكومتنا من تضحيات... انك تتفق معي ان ستراتفورد معتدل في مطالبه، وما ينوي القيام به لكم، وسأكون مسرورا لنقل كلامه للقيصر الاسكندر الاول...**" (BOA., HAT, 1092/44321, 1812) ، وبذلك اخذ ستراتفورد على عاتقه إدارة مسألة المفاوضات العثمانية–الروسية وبانتظار موافقة الاخيرة على ذلك، فكثف جهوده من اجل تهيئة الأجواء لإجبار الروس على السلام مع العثمانيين، لكن هل نجح ستراتفورد في هذه المهمة؟ استلم كوردون جوابا على رسالة ستراتفورد من وزير الخارجية الروسي نيكولاي رومانتسوف Nikolay Romantzoff (1754–1826) ، في التاسع والعشرين من نيسان 1812، جاء فيها: "**ان القيصر كان مسرورا، وابدى موافقته على ما جاء فيها بعد اجراء المفاوضات مع العثمانيين**"(TNA, F.O., 78/77, 1812). يبدو ان الروس كانوا مستعدين لتخفيف موقفهم التفاوضي ومطالباتهم بالتوصل الى اتفاق سريع.

بناء على ذلك، أرسل القيصر الإسكندر الأول تعليماته في الأول من أيار 1812 الى رومانتسوف، يطلب منه اجراء اتصال مباشر مع العثمانيين وترتيب مكان وزمان اللقاء في حال موافقتهم، وامام الحاح العثمانيين اصدر السلطان محمود الثاني تعليماته للصدر الأعظم بضرورة بدء المفاوضات مع الروس للتوصل الى معاهدة سلام في اقرب وقت ممكن، كما واصر ستراتفورد على بدء المفاوضات بأسرع وقت(TNA, F.O., 78/79, 1812). على الرغم من المحاولات الفرنسية لأفشال عملية السلام ومنع عقد أي معاهدة، الا انها انتهت بتوقيع معاهدة بوخارست للسلام بين البلدين في الثامن والعشرين من أيار 1812، وتضمنت ست عشرة مادة وملحق يتضمن مادتين سريتين (Erkutun, 1997, p. 98). وافق السلطان على المعاهدة على الرغم من شكوكه في مادتها السرية الثانية، وكان ستراتفورد اشد معارضة لتلك المادة مستندا بذلك الى "**توسع الروس واستفادتهم من ساحل بحر القوقاز، وحقهم في الملاحة الحربية على طول نهر الدانوب**"، واستدعي الامر كثير من النقاش، الذي تطلب منه جهدا حيث كان "**يتحرك بقوة في الوقت المناسب**" على حد تعبير أحد الباحثين (Ismail, 1982, p. 182). وتمت مناقشة المادتين السريتين في الثالث من حزيران 1812، حيث طلب السلطان محمود الثاني مقابلة ستراتفورد لبحث امتيازات الروس العسكرية في القوقاز، واستخدامهم الشاطئ الشرقي للبحر الأسود كميناء عسكري من اجل إعادة امداد جيشها في جورجيا، لذلك عاد الى مقترح الغاء المعاهدة بأكملها إذا لم يمتثل الروس للتخلي عن الملحق السري، وذلك الحل الذي كان قد اقترحه الصدر الأعظم، واستطرد

السلطان بدعوة ستراتفورد للكتابة الى الروس من اجل الضغط عليهم للتخلي عن الملحق السري (Erkutun, 1997, p. 98)،. لم يعارض ستراتفورد السلطان في هذه المسألة لأنه كان يميل الى دعم الدولة العثمانية ضد التوسع الروسي او تهديد طريق المواصلات البريطاني للهند، لذلك تمخض اللقاء عن "**اتفاق في اتخاذ قرار الغاء الملحق السري**"، يضاف الى ذلك ان ستراتفورد اخذ على عاتقه مسؤولية دراسة كل المخاوف العثمانية، وعلى أثر ذلك أرسل رسالة الى ايتالينسكي في الرابع من حزيران 1812 جاء فيها: "**... اخبرني السلطان ان روسيا إذا لم تعمل على الغاء الملحق السري للمعاهدة قد تنضم الدولة العثمانية الى حلف فرنسا بعد الغاء المعاهدة...**" (TNA, F.O., 78/77, 1812)، وبعد يومين من ذلك كتب ايتالينسكي الى الصدر الأعظم يقول: "**ان العثمانيون يخرجون ببطيء من قوقعتهم، وان افضل الوسائل لجرهم خارجها هي وضع خطة توازن ما بين خوفهم من الملحق السري للمعاهدة وكرههم التقليدي لنا... ونأمل ان نصل الى حل يرضي الطرفين بعيدا عن أي تدخل خارجي...**"(Ismail, 1982, p. 184). ويلاحظ ان ايتالينسكي أراد ترتيب تفاهم استراتيجي عثماني– روسي بعيدا عن بريطانيا.

كانت ردة فعل ستراتفورد هادئة جدا على الرغم من معرفته بتلك الرسالة والتي بالتأكيد هي ضد سياسة بريطانيا، بل انه جدد رغبته لحث الروس على التخلي عن اصرارهم على الملحق السري، وذلك من خلال اجتماعه مع المستشار العسكري الروسي بولغاكوف Bulgakov في السابع من حزيران 1812، وعلى حد تعبير المترجم الأول في السفارة البريطانية بيساني Pisani "**قد ذهب بولغاكوف الى حد اظهار درجة من القناعة تجاه العثمانيين بعيدة عن التحيز**" (Smith, 1933, p. 46). وزاد في تعميق رؤية ستراتفورد تجاه بولغاكوف لقاؤهما الأول في إسطنبول، اذ أدرك الرجلان ان هناك الكثير من المشتركات من الممكن خلالها شرح وجهة نظر ستراتفورد حول دفاعه عن العثمانيين، في ضوء اقناع بولغاكوف بأن الملحق السري فيه تهديد مباشر لمصالح العثمانيين العسكرية. فكانت إجابته هي تعديل الملحق العسكري، ومما جاء فيه "**ان حقوق الملاحة على طول نهر الدانوب تقتصر على الملاحة التجارية فقط، وتنازلت روسيا عن القاعدة البحرية الرئيسية في القوقاز المطلة على سواحل البحر الأسود**" (Ismail, 1982, p. 185). اطمئن ستراتفورد أكثر من أي وقت مضى، لا سيما بعد ما قام به بولغاكوف كجزء من التزام روسيا بمعاهدة بوخارست، ومن خلال متابعة اللقاء الذي جمعهما، أكدت الوثائق "**ان ستراتفورد لا يقهر واستطاع ان يحقق في النهاية الشيء الذي يرغب فيه بإخلاص بحصول الدولة العثمانية على حليف لمنع العداوة البريطانية من ان تؤدي فعلها**"، وفي الثاني عشر من حزيران 1812 تم التصديق على المعاهدة من قبل ممثلي روسيا والدولة العثمانية في مدينة فيلبينا (TNA, F.O., 78/77, 1812).

Vol 12, Issue 41, Aug 2025
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

هكذا استطاع ستراتفورد من خلال معاهدة بوخارست من مسك العصا من الوسط عندما نجح في اتباع علاقة متوازنة مع روسيا والدولة العثمانية، فقد تمكن في توطيد علاقة بريطانيا بالدولة العثمانية كمدافع عن حقوقهم ومصالحهم في المعاهدة، مثلما نجح في توثيق علاقة بلاده مع روسيا، كل ذلك من اجل تحقيق تطلعات بريطانيا في سياستها الخارجية والحفاظ على مصالحها في الدولة العثمانية.

الخاتمة:

1- تميز ستراتفورد بشخصيته القوية وبذكائه الحاد وفطنته السياسية، وهناك عوامل مختلفة شكلت شخصيته وتوجهاته الفكرية والاجتماعية، اذ نشأ في عائلة برجوازية في بريطانيا، حيث أثرت تنشئته الأسرية في تعزيز قيم الاجتهاد والعمل، بعد وفاة والده تولت والدته مسؤولية الأسرة، ولعبت شخصيتها القوية دورا مهما في تشكيل نفسيته، كما واجه تحديات مالية بعد انتقال العائلة من لندن إلى قرية وانستيد، وتأثرت نفسيته بهذا التغيير، وتولى ابن عمه جورج كاننك رعايته بعد وفاة والده، وقدم له تعليما متميزا وجهوده كانت محورية في تشكيل توجهاته الفكرية والمهنية، حيث اعترف ستراتفورد في مذكراته بدور ابن عمه الكبير في حياته.

2- لعب ستراتفورد كاننك دورا محوريا في السياسة البريطانية خلال فترة حرجة من تاريخ الدولة العثمانية من خلال تقاريره المفصلة حول الثورات العثمانية بين عامي 1805 و1808، وعلاقاته الوثيقة مع الشخصيات السياسية البارزة، ساهم بشكل فعال في صياغة الرؤية البريطانية تجاه الأحداث المتسارعة في المنطقة.

3- أظهر كاننك قدرات دبلوماسية استثنائية من خلال حرصه الكبير على حفظ الوثائق الهامة وضمان بقاء المعلومات الحيوية، تعكس هذه المهارة مدى التزامه العميق بأداء واجبه الدبلوماسي على أكمل وجه.

4- اعتمد كاننك على استراتيجيات فعالة للتعامل مع الأزمات، مما مكن بريطانيا من تعزيز موقفها في الساحة الدولية، وأظهرت قدرته على التكيف مع التغيرات السياسية إدراكا عميقا لطبيعة المشهد السياسي في تلك الحقبة.

5- امتلك كاننك فهما عميقا للثقافة والسياسة العثمانية، الأمر الذي مكنه من بناء علاقات متينة مع المسؤولين العثمانيين، كان هذا الإدراك الثقافي عاملا حاسما في توجيه السياسة البريطانية بفعالية.

6- أسهم كاننك بشكل مباشر في تحسين العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية، إذ لعب دورا بارزا في دعم مساعي التحديث الغربي في الدولة العثمانية، يعكس هذا التأثير أهمية مساهمته في تطوير العلاقات الثنائية.

Vol 12, Issue 41, Aug 2025
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

قائمة المصادر والمراجع:

References:

1. TNA, F.O., 352/1/3, 1808.
2. TNA, F.O., 352/1/2B, 1808.
3. TNA, F.O., 93/110/2, 1809.
4. TNA, F.O., 352/1/3, 1809.
5. TNA, F.O., 78/63, 1809.
6. TNA, F.O., 78/68, 67, 1810.
7. TNA, F.O., 352/1/7A, 1810.
8. TNA, F.O., 78/70, 1810.
9. TNA, F.O., 78/74, 1811.
10. 10- TNA, F.O., 62, 28, 1811.
11. 11- TNA, F.O., 620/2, 1812.
12. 12- TNA, F.O., 78/79, 1812.
13. 13- TNA, F.O., 78/77,1812.
14. 14- BOA., HAT, 1275/49513, 1809.
15. 15- BOA., HAT, 1178/46522, 1810.
16. 16- BOA., HAT, 1171/46317, 1811.
17. 17- BOA., C.HR., 107/5319,1811.
18. 18- BOA., HAT, 1092/44321, 1812
19. 19- BOA., HAT, 1092/44329, 1812
20. 20- BOA., HAT, 1096/44413, 1812
21. Adair, Robert. (1845). The Negotiations for the Peace of the Dardanelles in 1808–1809; with Dispatches and Official Documents. (V. 1). London.
22. Anderson, M. (January: 1954). Great Britain and the Russo-Turkish War of (1768–1774). (Vol. 69, N. 270). English Historical Review.
23. Akyıldız, Ali. (1993). Tanzimat Dönemi Osmanlı Merkez Teşkilatında Reform, Eren Yayınevi. İstanbul.
24. Byrne, Gerald. (1964). The Great Ambassador, (A Study of the Diplomatic Career of the Right Honourable Stratford Canning). the Ohio State University Press.
25. Keleş, Erdoğan. (2014). Tülay Ercoşkun, Stratford Canning'in Kaleminden Osmanlı İmparatorluğu'nun Durumu ve İstanbul'daki Üç İsyan (1807-1809). (Cilt. 33). (Sayı 56). Tarih Arastirmalari dergisi.
26. Erkutun, İlkin. (1997). Mevridü'l-Uhud: 1812 Bükreş Anlaşması ile İlgili Galip Paşa Evrakı. İstanbul ÜniversitesiSosyal Bilimler Enstitüsü. Basılmamış Yüksek Lisans Tezi. İstanbul.
27. Endorf, Andrew. (2008). British Foreign Policy Under Canning. (M.A., Montana University).
28. Hunt, Giles. (2001). Mehitabel Canning: A Redoubtable Woman. Family Letters. Hertfordshire: Rooster Books Limited.

29. Ivanovich, Aleksandr. (1843). Description of the Turkish War during the Tsardom of Emperor Alexander (1806 – 1812). (vol. 2). Petersburg.

30. Ismail, Fehmi. (1982). Bükreş Antlaşması'nınMüzakeresi (1811-1812). Ankara: Belleten.

31. Karal, Enver Ziya. (2007). Osmanlı Tarihi, (Cilt. 5). Ankara.

32. Neale, J. E. (October: 1928). The Diplomatic Envoy History. (Vol. 13, N. 51). London: the Quarterly Journal of the Historical Association.

33. Özdemir, Şenay. (2004). "Osmanlı Sularında Yabancı Devletlerin Korsanlığı Karşısında Osmanlı Devleti'nin Tarafsızlık Konumu". (Sayı: 36). A.Ü. Dil-Tarih ve Coğrafya Fakültesi Dergisi.

34. Petrie, Charles. (1954). Lord Liverpool and His Times. London.

35. Poole, Lane. (1888). The Life of the Right Honourable Stratford Canning: Viscount Stratford de Redcliff. (Vol. 1). London.

36. Rose, John. (1904). Napoleonic Studies. London.

37. Rose, John. (1906). Canning and the Secret Intelligence from Tilsit (July 16–23, 1807), (vol. 20). (fourth series). Transactions of the Royal Historical Society.

38. Temperley, Harold. (1936). England and the Near East: The Crimea. London.

39. Warr, Michael. (1989). A Biography of Stratford Canning Mainly his Career in Turkey. Oxford.

Vol 12, Issue 41, Aug 2025
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X